تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L' ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجـامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEl AHMED DRAYA-ADRAR

تنظـــــــم

ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر

Onziéme Colloque International

التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains

أيام: ٩-١٠-١١ نوفمبر ٢٠٠٨

المحور الخامس:

التصوف والقضايا المعاصرة

تعامل الصوفية مع الآخر بين ضغط الهوية والتحديات العولمية

د. تركي أمبارك
المركز الجامعي د يحيى فارس المدية

الملخص

سعينا في هذه المداخلة إلى محاولة الكشف عن تعامل الصوفية مع الآخر، وذلك من خلال النبش في تراثهم (مصادرهم ومراجعهم) التي تحوي أقوال مشايخهم وأقطابهم، وكذا سلوكاتهم وتصرفاتهم، ولتحقيق ذلك توقفت المداخلة عند محطات رسمتها لنفسها، فبعد تمهيد بينت فيه أهمية البحث في التصوف انتقلت المداخلة إلى تعريفه وبيان مشروعيته،وأهميته في الحياة المعاصرة، لتقف عند المحطة الرئيسة وهي إبراز تعامل الصوفية مع الآخر في المجالات الحياتية المختلفة، سياسية، اقتصادية، اجتماعية، عسكرية، وهي تفعل ذلك استعانت بما أتيح لها من مصادر ومراجع ومناهج فوصفت وحللت وناقشت وأيدت مرة وخالفت أخرى.

Résumé:

Cette étude essaye de découvrir la relation entre soufisme et l'autre .Grâce au retour aux leurs sources et références qui contiennent les paroles de leurs maîtres, aussi leurs comportements. Pour réaliser ça cette étude explique plusieurs points, ex: dans la préface je découvrit l'importance de la recherche sur la soufisme puis on l'a définit et prouvé son intérêt dans la vie contemporaine; on a terminé par le point principal qui est la façon du traitement avec l'autre dans les différents domaines de la vie: le domaine social, économique et la politique, elle fait ça grâce à des méthodes ou elle se décrit, discute, ratifie une fois et s'oppose une autre.

مقدمة:

تمهيد:إن عالمنا المعاصر مملوء بالمشكلات المعقدة التي صارت تدعى قضايا العصر عند الباحثين، والمنظمون للملتقى هذا يكونون- في نظرنا- قد أحسنوا صنعا حين أدرجوا هذا المبحث ضمن ملتقاهم وهو(الصوفية والتعامل مع الآخر) المنضوي تحت محور(التصوف والقضايا المعاصرة) إذ ما جدوى البحث في الموضوعات القيمية والمعرفية أو الفكرية أو الظواهر الاجتماعية-والتصوف ظاهرة اجتماعية-إذا لم تستثمر مبادئها، وأسسها المعرفية في حل المشكلات المعاصرة،مع العلم أن التصوف كمذهب ديني فكري روحي وجد أصلا استجابة لتطلعات النفس البشرية التي كبلت بمشكلات حياتية مادية طاغية، فإذا كان لكل مذهب ديني، أو فكري، أو اجتماعي أسباب لوجوده فإن من أسباب وجود ظاهرة التصوف هو طغيان الحياة المادية، والفكر المادي في وقت من الأوقات على البشرية أخل هذا الطغيان بالتوازن الذي يفترض أن يكون بين الجسد والروح، فلما شعرت البشرية أن مطالب الجسد طغت على مطالب الروح لجأت إلى البحث عن إطار فكري ديني يوازن بين الجانب المادي للإنسان والجانب الروحي له، أي مطالب الجسد ومطالب الروح،وقد وجدت الإنسانية العاقلة الباحثة عن الاعتدال في النصوص المقدسة(القرآن والأحاديث النبوية)عندنا نحن المسلمين ونصوص الإنجيل والتوراة عند المسيحيين واليهود، ونصوص الديانات الأخرى عند الفرس والهند-لفكرتها التصوفية غرضها، سواء كانت في التصوف الإسلامي أو غير الإسلامي- وإن كان ما يهمنا نحن هنا هو التصوف الإسلامي- فراحت تبحث عن الآيات القرآنية التي تتوجه إلى الروح فترغبها في الزهد وتحببها في الكفاف والعفاف وتحد من غلوائها وأطماعها،وهي نصوص كثيرة في قرآننا وتخفف من ثم من آلام النفس البشرية الطامعة الجشعة والناتجة عن طغيان مطالب الجسد على مطالب الروح،من هنا ظهر التصوف- فيما نعلم- فما هو التصوف؟

تعريف التصوف:

من يعد إلى الدراسات العربية وغير العربية التي تناولت ظاهرة التصوف بالدراسة يجدها تشير إلى جملة من المعاني يعود إليها جذور مفهوم التصوف نحاول أن نجملها فيما يلي:

المعنى الأول:ويرى أصحابه أن التصوف مأخوذ من الصوف، فالمتصوف عندهم هو الذي يتخشن ويتزيى بزي النساك المتعبدين وعلى هذا يكون التصوف زهدا وتقشفا وابتعادا عن الترف والمتعة(1) وقد انتصر لهذا المعنى ابن خلدون في مقدمته إذ يقول بعد كلام في التصوف (والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب يختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف)(2) وهو ما أقره صاحب الأساس أيضا حيث يقول بعد كلام فيه (..أو إلى الصوف الذي هولباس العباد وأهل الصوامع)(3).

المعنى الثاني: أما المعنى الثاني فيرى القائلون به أن التصوف آت من صوفة،وعلى هذا فالصوفي عندهم منسوب إلى صوفة قال صاحب الأساس(وكان آل صوفة يجيزون الحاج من عرفات أي

يفيضون بهم.ويقال لهم آل صوفان وآل صفوان وكانوا يخدمون الكعبة ويتنسكون ولعل الصوفية نسبوا إليهم تشبيها لهم في النسك والتعبد..)(4) وقد عقب العقاد على هذا القول بقوله(وإذا صح هذا التخريج فالصوفي اسم مفعول منقول على سبيل التشبيه..) (5).

المعنى الثالث:و قد قال به بعض الباحثين المحدثين ومضمونه أن التصوف مستعار من الكلمة اليونانية(سوفيا) (-theosophe) بمعنى الحكمة الإلهية وهي كلمة مركبة في تلك اللغة من كلمتين هما(ثيو) أي الإله و(سوفي) أي الحكمة ومعنى ذلك أن التصوف يكون مقابلا لمعنى الحكمة(6).

المعنى الرابع: وهو المعنى الذي يرى العقاد أن الكثيرين يرجحونه ومفاده أن التصوف منسوب إلى أهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم–(7) وإذا صح هذا فإن كلمة الصوفية آتية من كلمة الصفة بعد قلب إحدى الفاءين واوا للتخفيف(8) ويرى العقاد أن الصوفيين يحبون أن يشتقوا الكلمة من الصفاء وقد دعم رأيه هذا بقول نقله عن احد أقطاب الصوفية يشدد فيه على هذا المعنى فيقول(إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها(9) وقال بشر بن الحارث(الصوفي من صفا قلبه لله) (10)ونظم احدهم المعنى شعرا فقال(11).

ولست انحل هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي

غير أن العقاد لا يرتاح لهذا التخريج، إذ يرى أن أصحابه كانوا مدفوعين بحب الجناس والتورية وهي ميزة صوفية، كما أن التعمق في طلب الأسرار صفة مشتركة بين الصوفية والفلاسفة والمفكرين.(12).،وعقب أيضا على المعنى الأول بأن لبس الصوف وإن دل على التخشن والتزهد في الدنيا فإنه لم يكن خاصة مميزة للصوفية، إذ هناك أناس كثيرون لبسوا الصوف(13) هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أقطابا من الصوفية أخذوا حظهم وافرا من الحياة يقول العقاد(14) ونحن معه فيما ذهب إليه، وهو محق فيما قاله، ذلك أن الكثير من مشايخ الصوفية اليوم في زماننا هذا من أخذ حظه وافرا من الدنيا إن لم نقل زاد عن الوفرة، فالكثير من المشايخ الصوفية توفر لهم مالم يتوفر لغيرهم من الذين طلبوا حظوظهم الدنيوية، كما شاهدنا ولا زلنا نشاهد عددا من الناس لبسوا الصوف وتدثروا بها وتقشفوا في هذه الحياة وليسوا صوفية– فيما نعلم– وهذا يبطل في نظرنا اشتقاق الصوفية من الصوف وإن كان الاشتقاق يسنده، ولذلك ركز بعضهم على معنى صفاء القلب فهي الميزة الأساسية لمن يسمى صوفي(1 114 العقاد يقول العقاد إن المزية الصوفية الخاصة هي مزية الإيمان بالله على الحب لا على الطمع في الثواب أو على الخوف من الحساب والعقاب(15) ويبدو أن لهذه الميزة أدلة كثيرة ذكرها العقاد(16) وقد بلغ الأمر بالعقاد أن يجزم أن اللغة العربية ومعها اللغات الإسلامية أكثر لغات العالم وسعت شعر الحب الإلهي (17) وهو رأي نراه يؤكد المعنى القائل أن الصوفي من الصفاء لا من الصوف، ونتوقف عند هذا الحد لأن غرضنا ليس التفصيل في التعريف بالتصوف بل مرورنا عليه كان استجابة لضرورة منهجية رسمناها لمداخلتنا ليس إلا ومنه ننتقل للحديث عن التصوف في الإسلام

التصوف الإسلامي:

يمكن القول إن التصوف بدأ زهدا قبل أن يصير مدرسة يتخرج منها الأفراد لها قواعدها ورسومها من سيرة المريدين وأخلاقهم وعباداتهم(18) وإذا بحثنا عن تعريف للتصوف الإسلامي الذي نحن معنيون به هنا فإننا واجدون عند أقطابه أقوالا غزيرة تعرفه،وتبرز فهمهم له، ونظرا لكثرة هذه الأقوال فإننا سنكتفي بنماذج بعضها يركز على بداية التصوف وبعضها يركزعلى المجاهدات وبعضها يتحدث عن المذاقات(19) فمن التعريفات التي تتحدث عن بداية ظاهرة التصوف ما نقل عن معروف الكرخي قوله(التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف)(20) وما نقل عن أبي تراب النخشي(الصوفي لايكدره شيء ويصفو به كل شيء) (21)ومنه مانقل عن سهل بن عبد الله التسترى(الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر) (22)وهو المعنى الذي نجده عند ذي النون المصري إذ يقول(الصوفي من لايتعبه طلب ولا يزعجه سلب)(23) ومنه ما نقل عن أبي الحسين النوري (الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق فلما تركوا كل ما سوى الله صاروا مالكين ولا مملوكين) (24)وقوله أيضا(التصوف ترك نصيب النفس جملة ليكون الحق نصيبها)(25) وقوله أيضا(التصوف كراهية الدنيا ومحبة المولى)(26) ومنه ما نقل عن الجنيد (التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي ومفارقة أخلاق الطبيعة وإخماد صفات البشرية ومجانبة نزوات النفس)(27) وهي التعريفات التي استخلص منها الباحث إبراهيم بسيوني أن التصوف بدايته تيقظ فطري يوجه النفس الصادقة لأن تدخل في طريق خاص نحو هدف معين(28) أما التعريفات المتعلقة بالمجاهدات، والتي هي الجانب العملي في المنهج الصوفي، فنكتفي بذكر منها مايلي (التصوف هو الدخول في كل سنى والخروج من خلق دنى)(29) وهو لأبي محمد الجريري، ومنها ما يقوله الكناني(التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء)(30) وما يقوله النوري(ليس التصوف رسما ولا علما ولكنه خلق لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ولو كان علما لحصل بالتعليم ولكنه تخلق بأخلاق الله ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم) (31)كما نقل عن بعضهم أن (التصوف ألا تملك شيئا ولا يملكك شيء)(32) ونقل عن رويم قوله(التصوف مبني على ثلاث خصال التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالذل والإيثار وترك التعرض والاختيار)(33) وعرف بعضهم التصوف فقال(التصوف هو الصبر تحت مجاري الأقدار والرضا بما تعطيه يد الجبار وقطع الفيافي والقفار)(34) ونقل عن الجنيد قوله(التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع)(35) وعنه أيضا(التصوف بيت والشريعة بابه)(36) ونقل عن السري السقطي قوله(التصوف اسم لثلاثة معان وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور روعه ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله)(37) والصوفية عند ذي النون(قوم اثروا الله على كل شيء

فآثرهم الله عز وجل على كل شيء)(38) والصوفي عند أبي سعيد الخراز(من صفى ربه قلبه فامتلأ نورا ومن حل في عين اللذة بذكره الله)(39) والصوفي عند الجنيد(أن يختصك الله بالصفاء فمن اصطفى من كل ما سوى الله فهو الصوفي)(40) وغيره من الأقوال التي تعرف التصوف ومواصفات المتصوف،أما التصوف الناتج عن المذاقات فهو عندهم تيقظ فطري يوجه النفس الصادقة إلى أن تجاهد)(41) 24 وننقل الآن مجموعة من التعريفات تخص هذا النوع من التصوف عرف أبو الحسين المزين التصوف بقوله(التصوف الانقياد للحق)(42) وعرفه رويم فقال هو (استرسال النفس مع الله تعالى على مايريد)(43) وعرفه الشبلي فقال(الصوفية أطفال في حجر الحق)(44) وعرفه الجنيد فقال(التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة)(45) وغيرها كثير من الأقوال لأقطاب المذهب الصوفي كلها تعرف التصوف، كانت هذه مجموعة أقوال عرف أصحابها التصوف كما فهموه ومن الزاوية التي ينظر كل واحد منهم إليه، ولسنا نملك نحن أكثر مما قاله هؤلاء.ولذلك سنكتفي به، ومنه ننتقل إلى الحديث عن مشروعية التصوف الإسلامي.

مشروعية التصوف الإسلامي:

بعودتنا إلى مصادر التراث الصوفي، وبالضبط إلى تلك الأقوال المنقولة عن أقطابه في مختلف المراجع والمصادر ندرك مدى مصداقية مرجعيته، وخلفيته الفكرية، والمعرفية وبالتالي مشروعيته، أو مشروعية وجوده، وعليه فإنه يمكننا القول إن التصوف الإسلامي يأخذ مشروعيته مما ذكرناه من أقوال سابقة تتطابق مع عقيدة التوحيد، ولا تتنافى معها وبما نذكره من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية كلها تؤسس للتصوف، باعتباره ظاهرة اجتماعية دينية تعبر عن نزعة في الفهم لهذه الآيات والأحاديث،ومنهج حياة يسير عليه الصوفية في حياتهم فالمنهج الصوفي الإسلامي الصحيح إذن يتخذ من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مصدرا له يقول الباحث إبراهيم بسيوني (ولقد حرص الصوفية على أن ترتبط مجاهداتهم بالشريعة وألا يخرج احد عنها باسم التصوف والحياة الباطنية)(46) وقد نقل عن أبي زيد البسطامي قوله (لو نظرتم إلى الرجل..)(47) وقال في موضع آخر أيضا (حاولوا ربط أنفسهم بالشريعة في كثير من المواقف)(48) ونقل عن الجنيد قوله(والتوفيق بين الحقيقة والشريعة..)(49) 279 ونقل عنه أيضا قوله(علمنا هذا مبني على الكتاب والسنة..)(50)279 هذه بعض أقوال أقطاب الصوفية وهي أقوال مستنبطة من آيات كثيرات منها قوله تعالى (ففروا إلى الله)(51)وقوله (الله نور السموات والأرض مثل نوره)(52) وقوله (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله)(53) وقوله (ونحن اقرب إليه من حبل الوريد)(54) وقوله (وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) (55)وقوله(وله الخلق والأمر)(56) وقوله(يعلم مابين أيديهم وما خلفهم)(57)وقوله(فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا)(58) وغير هذا كثير،فكما يقول العقاد (هذه آيات بينات يقرأها جميع المسلمين في كتابهم الذي لا يختص به فريق منهم دون فريق وبينهم ولا شك أناس مطبوعون عل التصوف واستخراج الأسرار الخفية

والمعاني الروحانية من طوايا الكلمات)(59) ومن ثم فقد استنتج العقاد أن الصوفي(إذا آمن بالكشف عن الحقائق من وراء الظواهر لاينتهي من التفرقة بينهما إلى إسقاط الشريعة أو إسقاط ما تأمره به من التكليف أو إباحة ما تحظره من المحرمات لأن الحقيقة عنده لا تنقض الشريعة بل تتممها وتكشف ما استتر من حكمتها وتظهر ما خفي من أسباب ظواهرها)(60) وهي أقوال نفهم منها أن الصوفي كان ملتزما بالشريعة في جل سلوكاته، وتصرفاته وقد دعم العقاد رؤيته هذه بقوله(وقد كان أقطاب الصوفية يقيمون الفرائض ويصلون ويصومون ويحجون إلى البيت،ويعطون الصدقات)(61) ويذكر أنهم كانوا ينكرون على من يمرق عن الشريعة فنقل عن الجنيد أنه أنكر قول القائل أمامه(إن أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله)(62) فقال الجنيد(إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهذه عندي عظيمة.والذي يسرق ويزني أحسن حالا ممن يقول هذا)(63) وقد نقل العقاد عن صاحب كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف قوله(وأجمعوا على تعجيل الصلوات وهو الأفضل عندهم مع التيقن بالوقت ويرون تعجيل أداء جميع المفترضات عند وجوبها لا يرون التقصير والتأخير والتفريط فيها إلا لعذر)(64) فالتصوف الإسلامي إذا وكما يقول العقاد هو(ذلك التصوف الذي وضعه الإسلام موضعه الذي يصلح به ويصلح من يريده فليس هو بواجب وليس هو بممنوع ولكنه ملكة نفسية موجودة في بعض الطبائع لازمة لمن وجدت في طبائعهم)(65) ومن هنا يكتسب التصوف الإسلامي مشروعيته ومصداقيته في نظرنا، ومن ثم كان المسلمون أولى الناس بالتصوف بالأمس واليوم وغدا، ولن يكون الإنسان المسلم المعاصر في غنى عنه، ولن يكون التصوف مذهبا مهجورا،أو مذهبايجب هجرانه.

أهميته في الحياة:

إذا عرفنا أن التصوف يأخذ مشروعيته مما ذكرنا من آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة،وإذا عرفنا أيضا أن التصوف الإسلامي يتميز بهذه السمة عن التصوف في الحضارات الأخرى عند غير المسلمين، وإذا عرفنا أن التصوف هو مجاهدة النفس عن هواها وهو عند معتدليهم معادلة بين مطالب الروح ومطالب الجسد فلا يترك الإنسان العنان لجسده فيصير حيوانا جشعا بلا رابط، ولا ضابط كما هو اليوم في الحضارة الغربية، ولا ينغمس في الفكر الروحي الباطني الذي يحرم الجسد حقه من المتعة، لأن هذا رهبانية، ولا رهبانية مبتدعة في الإسلام، إذا كان التصوف هكذا مقيدا بقوله تعالى (ولا تنس نصبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغي الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين)(66) فإنه يكون له أهمية عظيمة في حياتنا المعاصرة اليوم فما أحوجنا إلى تصوف يعيد للنفس البشرية اطمئنانها،ويقيم التوازن بين الجسد والروح، ويساهم في معالجة الكثير من القضايا المعاصرة، والمشكلات المعقدة ومنها تعاملنا مع الآخر، هذا الآخر الذي أطلق العنان لشهوته الجسدية فصارت لا حدود لها.

الصوفية والتعامل مع الآخر:

كنا قد ذكرنا أن التصوف عندنا هو منهج حياة، وهو منظومة من القيم الروحية الدينية تؤسس لمجتمع يدور في فلكها، يترعرع في سياجها الذي رسمته، والذي استمد ته كما بينا من نصوص قرآنية ونبوية، ومن فهم أقطاب الصوفية لهذه الآيات والأحاديث، هذا الفهم الذي وإن كان ناتجا عن استعداد فطري لتلك الشخصيات المتصوفة، فإنه لا يخرج عن إطار الوجوه المحتملة للآي الكريم،أقصد أن ما يفهمه الصوفي من هذه الآيات نراه يندرج في سياق الفهم الذي يمكن أن يفهم لهذه الآية، أو تلك في هذا الظرف، أو ذاك، ومن هنا كان التصوف الإسلامي يتسم بهوية مخالفة تماما لهوية التصوف في الحضارات الأخرى، حتى وإن وجدنا نقاطا مشتركة، وكان المتصوفون عندنا يختلفون هوية عن هوية الآخر، وإذا تميز المتصوف عندنا عن الآخر هوياتيا فإن البحث في كيفية التعامل مع هذا الأخر يصبح أمرا مبررا، فما الذي يحكم تعاملاهم معه؟إن الإجابة عن سؤالنا المبرر نراها سهلة ويسيرة في ظل ماطرحناه وبيناه إذ كنا قد ذكرنا أن التصوف الإسلامي يكتسب مشروعيته من نصوص قرآنية ونبوية كثيرة شكلت الخلفية المرجعية لأقطاب الفكر الصوفي هذا أولا، ثم أقوال هؤلاء الأقطاب التي تؤكد أصالة الفكر الصوفي الإسلامية ثانيا الأمر الذي يجعلنا نقرر بداية أن علاقة المتصوف مع الآخر منظمة بفضل تلك النصوص القرآنية والنبوية، فما هي هذه النصوص القرآنية والنبوية التي تنظم علاقة المتصوف بالآخر؟ إننا نتصور أن الباحث عن هذه النصوص لا يعدم لها وجودا لكثرتها إذ من يستنطق القرآن الكريم والسنة النبوية،وفقهاء الشريعة يجدها تزخر بكم هائل من هذه النصوص التي تحكم علاقتنا-نحن المسلمين- بالآخر الذي يختلف عنا دينا ولغة، وآدابا واجتماعا وحضارة وأنا لا أتصور تعاملا للمتصوفة مع الآخر في غير هذا التصور، ففي ضوء هذه النصوص القرآنية، والنبوية والشرعية تقيم الصوفية علاقتها مع هذا الآخر في مختلف المجالات الحياتية:السياسة والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية وقت السلم ووقت الحرب، ولتأكيد طرحنا هذا،وقبل محاورة الآيات القرآنية التي تنظم علاقتنا -المتصوفة-مع الآخر أود أن أتساءل هل التصوف ظاهرة اجتماعية مربوطة بالكتاب والسنة يمكنها أن تحل المشكلات الحضارية المعاصرة؟والتعامل مع الآخر إحدى مشكلات العصر -فيما نعلم- خاصة في ظل احتدام الصراع العلائقي مع الآخر،نحن كنا قد بينا سابقا معنى التصوف،ومكانته،ومشروعيته،وقلنا إنه منظومة قيمية اجتماعية دينية وجدت عبر العصور ومادام هو كذلك فإننا نتصور أنه قادر على أن يساهم في إيجاد الحلول للمشكلات المعاصرة فما هي هذه المشكلات المعاصرة التي يمكن للتصوف حلها؟إن مجتمعنا الإنساني المعاصر مملوء بالمشكلات التي تنغص استقراره ورفاهيته،مشكلات اجتماعية اقتصادية سياسية ثقافية أخلاقية علمية أمنية،فنتصور أن أهل التصوف قادرون على معالجة مثل هذه القضايا في إطار المبادئ التي تحكم تصوفهم، والتي تحكم علاقتهم مع الآخر،كمشكلة السلم والتنمية والتربية واحترام الأديان، والعقائد، ومادام مداخلتنا محصورة في التعامل مع الآخر فإنني أتصور أن الفكر الصوفي وكذا الممارسة الصوفية تملك من الأفكار والقيم ما يؤهلها أو ما يؤهل أتباعه للتعامل مع الآخر الذي يختلف عنا دينا

ولغة وحضارة وثقافة وسلوكا وممارسة وأخلاقا، ولعل الفكر الصوفي يكون أنسب المناهج الإسلامية للتعامل مع الآخر في عصرنا هذا الذي ازدادت فيه العداوة على الإسلام،وأتباعه من المسلمين خاصة المسلمين الذين ينتسبون إلى ما يسميه الغرب الإسلام السياسي الجهادي الذي وإن كنا نملك الأدلة التي تؤيد توجهه وتبرر ممارسته، إلا أننا نرى وأنه قد جلب للإسلام العداء أكثر مما جلب له المنافع ومن ثم اشتدت وطأة الأعداء وازدادت ضراوة،من هنا نرى أن الإسلام الصوفي مؤهل لئن يلعب دورا متزنا قد يعود بالمنافع على الإسلام والمسلمين بتفويت الفرصة على أعداء الإسلام الذين هم في أوج قوتهم المادية والتكنولوجية وجاهزيتهم،ويتحينون الفرصة للانقضاض عليه فيمكن للإسلام الصوفي بفضل روحانيته وتسامحه ومحبته واعتداله أن يحسن علاقة المسلمين بغيرهم في تعاملاتهم الحياتية، فينظم علاقة الجماعات الإسلامية مع هذا الآخر لكن من دون التفريط في كليات الإسلام خاصة وأن الفكر الصوفي محكوم كما ذكرنا بالنصوص القرآنية والنبوية، ثم أقوال أقطاب المشايخ الصوفية الذين لهم علم واسع بالشريعة ودراية كبيرة بمقاصدها والذين نادوا إلى تحكيمها في حياتهم وعدم تجاوزها، ومعلوم أن هذه النصوص لم تترك علاقتنا بالآخر مهملة غير منظمة،فالذي يستنطق القرآن الكريم يجده يزخر بعشرات الآيات التي ترشدنا إلى كيفية التعامل مع الآخر في كل الأوقات وقت السلم ووقت الحرب وفي شتى المجالات الحياتية قال عليه الصلاة والسلام (الدين المعاملة)(67)وأتصور أن الصوفية–في حقيقتها– لم تخرج عن هذه النصوص في تعاملها مع الآخر خاصة في ظل العولمة وما تفرضه من تحديات على المجتمع المسلم فاليوم صارت الحياة أو العلاقات الدولية معقدة جدا ومتشابكة، وما دام الأمر كذلك فإني أتصور أن الفكر الصوفي يملك من الآليات المعرفية والسلوكية والمعاملاتية ما يؤهله للنهوض بتنظيم هذه العلاقة التعاملية في كل الأوقات وتحت أي ظرف من الظروف،بل ولعل التعامل مع الآخر يعد اليوم إحدى مشكلات العصر في ظل العولمة الزاحفة وما تفرضه من تحديات أساسها تهديد الهوية الوطنية العربية الإسلامية ومن ثم علاقتنا بهذا الآخر الذي يعمل على تهديد هويتنا تزداد تعقيدا، فهل في مقدور المنهج الصوفي كما فهمناه أن يفرض نمطا من التعامل مع الآخر يمكنه من الاستمرار في إقامة علاقات مملوءة بالهدوء والاستقرار،ومن ثم النهوض بالأمة هذا ما تجيب عنه المداخلة في المحاور التالية:

أولا:التعامل السياسي:

يقوم المجتمع الدولي اليوم على مبدأ العلاقات السياسية بين الدول أو الحكومات المكونة له، حيث تبرم العهود والمواثيق بين الدول،ويرى العقاد رحمه الله (أن المعاملات الدولية كلها تقوم على العهود والوفاء بها وخلوص النية في التزامها)(68) ومن ثم فقد أوجب القرآن الكريم على المسلمين الوفاء بعهودهم في كثير من الآيات البينات قال تعالى(وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا)(69) وقال(والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) (70)ووصف الذين ينقضون العهد بشر الدواب فقال(إن شر الدواب عند الله الذين)(71) وقد أمرنا القرآن الكريم أن نفي بوعودنا حتى مع أعدائنا، وتذكر كتب السيرة النبوية أن نبينا–صلى الله عله وسلم– كان وفيا بعهده مع قريش في كل عهد أبرمه معهم وأمرنا القرآن بإتمام العهود إلى مدتها فقال(فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين)(72) وغير هذا كثير مما في القرآن ومثلها السنة النبوية المطهرة التي تحث على الوفاء بالوعد والعهد، فتلك هي النصوص التي تحكم علاقتنا –نحن المسلمين–بالآخر،وأتصور أن الصوفية لم يخرجوا في تعاملهم مع هذا الآخر عن هذا الإطار الشرعي، فهذه النصوص هي التي تقيد تعاملاتهم مع غيرهم وسواء كانت الصوفية كجماعة أم كأفراد تدعم الحكومات التي تسير شؤونهم، والإسلام لا يمانع أن نتعامل مع الآخر الذي يختلف عنا دينا سواء كان هذا الآخر يدين بدين سماوي كاليهود والنصارى أم يدن بدين أرضي كما هو حال عبدة النار والأبقار والمجوس فعلاقة المسلمين ومنهم المتصوفة معهم مربوطة هنا بما سبق من آيات وأحاديث كقوله تعالى(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم..)(73)فالآية صريحة في جواز إقامة التعامل مع الآخر بالعدل والإبرار بل على الحاكم المسلم أن يحمي هذا الآخر إن كان يعيش بيننا، ويعوله كما يعول المسلمين ثم لايطلب منه جهاد ولا ذياد كما يطلب من المسلمين(74) كما أن الآية صريحة،في إقامة تعامل مع غير المسلمين غير المحاربين لديار الإسلام، ونص على هذا كل العلماء والمفسرون، وأظن أن عدم النهي التعاملي هنا شامل لكل مجالات الحياة بيننا وبينهم، ومنه التعامل السياسي الذي يتمثل في إقامة علاقات دبلوماسية بيننا وبين هذا الآخر مالم يكن محاربا لنا محتلا لأرضنا، مع التنبيه إلى أن هذا التعامل هو من اختصاص الدول والحكومات، لكن الصوفية باعتبارها منظمة لها دور في قبول هذا التعامل، والحث عليه، أو رفضه، وأنا أتصور أنها تقبله وتدعو إليه إذا كان هذا الآخر يحمل المواصفات التي ذكرتها سابقا لأن هذه التعاملات الحكومية منصوص عليها شرعا خاصة إذا كان هذا التعامل فيه مصلحة للمسلمين، ومن ثم وجدنا فقهاء الإسلام لا يمانعون هذه التعاملات مادامت تجلب لهم منفعة أو تدفع عنهم مضرة، وقد عبر القرآن الكريم في سورة الروم عن فرحة المؤمنين بانتصار الروم (المؤمنون) على الفرس المشركين فقال(الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الآمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر

الله)(75) ومعلوم أن الروم يختلفون عنا هوية ودينا ثم أن هذا التعامل مع الآخر مؤسس على الرفق والرحمة يقول العقاد(فقوام المعاملات كلها في هذه العلاقات على الرفق الرفق)(76) وهذه هي سياسة القرآن التي رسمها لأتباعه–والصوفية أتباعه– في إقامة تعاملاتهم مع غيرهم من الأمم الأخرى التي تخالفهم شرعة ومنهاجا، وهو ما أشار إليه أحد الباحثين حيث قال(الظاهر أن المكون الأساس للرؤية الخاصة بالتعامل مع الآخر بحسب المنطق القرآني يتركز في العموميات المؤسسة للسلم بلا معارضة من عموميات أخرى)(77).. ويرى هذا الباحث أن الآيات التي تدعو إلى الجهاد تصنف في حيز الاستثناء، وهي محصنة بالآيات الحاصرة للقتال في الحالات الدفاعية وهو رأي نشاطره فيه،لأننا نجده عند جل المفسرين للقرآن، ونجده مجسدا في تاريخ الدولة الإسلامية منذ نشأتها، إذ لم تشن حروبا إلا دفاعا، ولذلك صح عدنا قول الشيخ فالتعامل مع الإنسانية حسب الرؤية القرآنية قائم على أساس متين هو السلم وهو بمثابة الأصل الأولي الذي لا يجوز الخروج عنه إلى ضده (اللاسلم) العنف إلا في حالات خاصة يقول الشيخ(فالخروج من حالة السلم إلى حالة العنف مفتقر إلى نص مجوز كما في قوله تعالى (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا)(78)كما يفتقر إلى إذن كما في قوله تعالى(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير)(79) فالطرق الدفاعية ليست مطلقة عندنا وإنما هي مقيدة بحدود الضرورة حتى قال الفقهاء لو اندفع العدو بالصياح لاكتفى به(80).

التعامل الاقتصادي:

ما ذكرناه سابقا يخص المجالات السياسية، وهو المجال الذي تعنى به الدول والحكومات،وقد يكون فيه دور للمجتمعات السياسية، وأدوار غير مباشرة للمجتمعات المدنية التي منها المجتمع الصوفي، وأما الآن فنتحدث عن التعامل الاقتصادي الذي يقع بين الدول والحكومات، ويقع بين الأفراد والمؤسسات، فما هي الأساليب التي تحكم هذا التعامل؟هل المجتمع الصوفي حر في تعامله الاقتصادي مع الآخر الذي يختلف عنه دينا ولغة وحضارة؟من المعلوم أن المعاملة الاقتصادية في الإسلام مقيدة بنصوص قرآنية ونبوية تراقبها من الانحراف والانزلاق، لأن الإسلام كان حريصا كل الحرص على الكسب الحلال والإنفاق الحلال سواء كان هذا التعامل الاقتصادي يخص المؤسسات الإسلامية أم الأفراد،ومن ثم فالمسلم –الصوفي–خاصة كان حريصا على مراقبة الله في تعاملاته الاقتصادية، وربما الصوفية أكثر الجماعات الإسلامية تحوطا في هذا المجال، حتى لا يدخل الصوفي إلى جوفه مالا حراما استجابة لنصوص كثيرة تحث المسلمين ألا يدخلوا بطونهم مالا حراما،لأن ذلك يفقد المسلم استجابة الدعوة ويجلب له المعصية، والعقاب، من هنا نتصور أن علاقة أهل التصوف بالآخر في الميدان الاقتصادي يشوبها الحذر، ومع ذلك فهناك تعاملات اقتصادية كبيرة بين المسلمين وغير المسلمين، بيع وشراء وتبادل للمنفعة بين المسلمين وغيرهم وقد نص القرآن الكريم على جواز أكل طعام أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقال (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم)(81) على أنه يجدر بنا الإشارة إلى أن العلاقة الاقتصادية الموجودة بيننا وبين

الآخر على مستوى الحكومات لا تخضع للمقاييس الإسلامية إذ يسودها التعامل الربوي بجميع أصنافه وكذا الاحتكار وغيره من الأمور التي حرمها الإسلام لأنها أكل الأموال الناس بالباطل، وأنا أتصور أن الصوفية كأفراد، أو كمذهب لم ولن يدخلوا في تعاملات اقتصادية ربوية، وهم ليسوا مسؤولين عن اقتصاد حكوماتهم،بل أعتقد أن تعامل أهل الصوفية مع الآخر في الميدان الاقتصادي مربوط بمثل قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة)(82) ومقيد بقوله تعالى(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم)(83) ومقيد أيضا بقوله تعالى(كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)(84) ومحكوم بمثل قوله صلى الله عليه وسلم (من احتكر طعاما)(85) وغيرها من النصوص التي تقيد التعامل الاقتصادي للإنسان المسلم والصوفي أكثر الناس تمسكا بالإسلام وبنصوصه خاصة في ميدان المال.

التعامل الاجتماعي:

علمنا الإسلام أننا جزء من المجتمع الإنساني ندين بالرحمة والحب للإنسانية جمعاء ومن ثم فقد أباح الإسلام للمسلمين لتزوج من بنات المجتمعات الأخرى غير الإسلامية وهو يبيح ذلك معناه يبيح لنا إقامة علاقة اجتماعية مع هذا الآخر فيجوز للمسلم التزوج بالكتابية اليهودية والنصرانية كما يجوز البيع والشراء معهم ولا شك أن هذه المجالات أكثر المجالات تظهر فيها التعاملات الاجتماعية للاختبار ففي الزواج تبرز المعاملة الزوجية وفي البيع والشراء تبرز المعاملة الائتمانية التي يجب أن تسود بين المتعاملين من أمانة وصدق ووفاء وتنجب الغش ونحن نتعامل مع الآخر اجتماعيا أمرنا أن نتحرى العدل والإنصاف قال تعالى(لا ينهاكم الله عن الذين ..أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)(86) وهذا العدل مطلوب حتى أمام القضاء فعلى القاضي المسلم في حكومة الإسلام أن يعدل بين المتقاضين حتى ولو كان احدهما غير مسلم اعني ينتمي إلى الآخر من أهل الكتاب والمشركين وقد حدثت وقائع في تاريخ الإسلام تؤكد هذا وتبين عدالة الإسلام وسماحته والمتصوفة وكما تنطق بذلك مرجعياتهم مربوطون في علاقتهم بالآخر بتطبيق شريعة الإسلام ولذلك وجدنا في تاريخ أهل التصوف من تزوج بالكتابية ولسنا في حاجة إلى ذكر عدد الزيجات التي وقعت من مشايخ الصوفية ببنات الآخر كما لسنا محتاجين إلى أن نذكر عدد الزيجات التي يرتبط بها المسلمون اليوم ببنات الآخر فهي تزيد عن الوصف والعد والإحصاء وكل ذلك يدل على سماحة أهل الإسلام ومنهم المتصوفة غير أن المسلمين مرت عليهم مرحلة شعروا فيها بالتحرج من العادات الأجنبية خوفا على ديانتهم ...فوجدت بسبب ذلك أفكار تدعو إلى ترك الكثير من العادات الأجنبية التي وسعها الإسلام أيام عزه كما يقول العقاد(87) وضاقت بها مجتمعاتهم حين ضعفوا فخافوا على دينهم في مرحلة ضعفهم أو ضعف دولتهم وأهل التصوف يفعلون ذلك بعلاقتهم وتعاملهم مع الآخر من باب قوله تعالى(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم)(88).

التعامل العسكري أو التعامل مع الآخر المحارب:

يؤكد العلماء وكذا الفقهاء،ومعهم المفسرون للقرآن الكريم أن الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر تتأسس على مبدأ الرحمة، فالرحمة هي الصبغة العامة والهدف الأول والأخير من التعامل مع الآخر،والرحمة هي الأصل والقاعدة يقول، الشيخ نمرالنمر في مقال له بعنوان(الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر) وقد ذكر الشيخ في مقاله جملة من المبادئ المؤسسة للتعامل مع الآخر يحسن بنا أن نشير إليها موجزة وهي(89)1-جعل الرحمة هي الهدف الأسمى من خلق الإنسان 2-بيان أن التعامل الإلهي مع خلقه تعامل رأفة ورحمة للناس فالغنى رحمة، والفقر رحمة لهم والحياة رحمة، والموت رحمة 3-إنزال الكتب السماوية بيان للناس وهذه رحمة أيضا 4-بعث الأنبياء وإرسال الرسل(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(90) ثم أبرز الشيخ أساليب التعامل مع الآخر حسب الرؤية القرآنية فذكر جملة من النقاط نذكرها موجزة أيضا وهي(91).

1-الحوار والجدال وهو لغة التخاطب والتعامل وقد اعتمد عليه القرآن الكريم قال تعالى(اقل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة)(92) وقال(قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)(93).

2-التركيز على نقاط الالتقاء وجعلها محور العلاقة قال تعالى(قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)(94) وقوله (قولوا آمنا بالذي انزل إلينا وانزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد)(95).

3-مراعاة المشاعر الإنسانية بعدم استفزاز الآخر وهو أمر نص عليه القرآن في قوله تعالى(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله)(96).

4-إطفاء نافذة الفتن وتجفيف مستنقعات التوتر عبر الإعراض عن الجاهلين والمشركين والغض عن تصرفاتهم، وقد أمرنا القرآن بهذا الأسلوب التعاملي فقال(وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم)(97).

5-اعتماد مبدأ الحرية والاختيار امتثالا لقوله تعالى(لا إكراه في الدين)(98).

6-الدعوة إلى السلم الشامل امتثالا لقوله تعالى (يأيها الذين امنوا ادخلوا في السلم كافة) (99) وقوله(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) (100)غير أنه يجب التنبيه إلى أن الدعوة إلى السلم لاتنطلق من الجبن والخوف والضعف.

7-تعدد النظرة إلى الآخر التي توجب تعدد أساليب أنواع التعامل، فالآخر فئات وأفراد مختلفة فالآخر ليسو سواء في المواقف والأفكار، وليسوا سواء في الصفات وقد صور القرآن الآخر فقال (ومن أهل الكتاب من أن تامنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تامنه بدينار لا يؤده إليك)(101) فمنهم المحارب المعادي، ومنهم المنافق ومنهم المسالم .

8-العدالة الشاملة مع الآخر بجميع أطيافه وذلك امتثالا لقوله تعالى(أن تبروهم وتقسطوا إليهم)(102).

9-المرونة وتغيير الأساليب إذا دعت المصلحة الشرعية لذلك.

10-البر بالآخر إذا لم يقاتلنا ولم يخرجنا من ديارنا.

11-الحرب الشاملة مع الآخر، وهو الذي ينقض العهود والمواثيق، ويمارس العدوان والتآمر أو يعلن الحرب، لأن هذه الفئة من الآخر لم تحكم العقل، ولم ترد الخير للإنسانية، لذا يجب محاربتها،كانت هذه هي النقاط التي أوردها الشيخ والتي أحببت أن أوردها، لأهميتها في هذا المجال، ونحن إذ نركز في مبحثنا هذا على هذا المقال للشيخ، وعلى النصوص القرآنية والنبوية التي تثبت ذلك، لأننا نؤمن أن الصوفية يرتكزون في تعاملهم مع غيرهم على النصوص القرآنية والنبوية، ولا نجدهم يتجاوزونها ثم نجدهم يصبغون فهمهم عليها هذا الفهم المملوء بالحب والرحمة والمودة للإنسانية قاطبة، ونحن إذا بحثنا في تاريخ الحروب التي خاضها السلمون ضد غيرهم من الصليبيين، واليهود وجدنا هذه الرحمة حاضرة ترافق الفعل الحربي، أو الجهادي إذ لم يقسو المسلمون في حروبهم على محاربيهم إذا انتصروا عليه فهم بمجرد ما يتمكنوا منه يخيرونه بين أن يبقى على دينه، أو يترك دينه ويدخل في الدين الجديد دون أكراه، فإن دخل في الدين الجديد له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإن أبى عومل معاملة الذميين وعلى الحاكم المسلم حمايته وإعالته مقابل مبلغ مالي يدفعه إلى بيت مال المسلمين كما كانت الرحمة حاضرة عند الأسر، إذ أوجب الإسلام معاملة الأسرى بالحسنى وكانت حاضرة أيضا في معاملة العباد في الصوامع والنساء والأطفال، وكذا كبار السن الذين لا يحملون السلاح، يقول العقاد مصورا علاقات المسلمين بغيرهم وقت الحرب(وعلاقات الحرب بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم هي ارفع معاملة عرفت في عصور الحضارة الإنسانية،امن الطريق وأمان الوادعين المسالمين وفتح المسالك للأرزاق والذهاب والمآب وتنظيم ذلك كله بالعهود والمواثيق مع حث المسلمين على رعايتها ومسامحة الغادرين في غدرهم إذا امنوا العاقبة ولم تلجئهم الضرورة)(103) ولا اعتقد أن الصوفية وهم من هم تغيب عليهم هذه التعاملات التي نصت عليها نصوص الإسلام، فلا أتصور أن الصوفية سواء كانوا كتنظيم أم كأفراد تغيب عليهم هذه النصوص، أو يغيبونها في تعاملاتهم ومعاملتهم للآخر بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن الصوفية وإذا ما قارنا بينهم وبين الفرق الإسلامية الأخرى، أو الجماعات الإسلامية وجدناهم أكثر الجماعات تمسكا بالرحمة فهم يلتمسون الأعذار لغيرهم، ويطبقون مبدأ الرحمة في جل سلوكاتهم وتصرفاتهم مع الآخر سواء كان هذا على المستوى السياسي أم على المستوى الاقتصادي أم المستوى الاجتماعي أم العسكري ولا نكون مغالين إذا قلنا إن المنهج الصوفي وحتى اليوم هو المنهج الأكثر ليونة في تعامله مع الآخر فهو يطبق مبدأ قوله تعالى(فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)(104)وقد يؤكد هذا الأمر ردودهم على ما عرف بالصور المسيئة لنبينا محمد-صلى الله عليه وسلم- فهم لم يحرقوا سفارات ولم يقوموا بمظاهرات، وهم الذين يعرف عنهم حبهم الشديد لخير خلق الله في الوقت الذي رأينا رؤوس الجماعات الإسلامية الأخرى تدعو الحكومات الإسلامية والعربية إلى مجابهة العمل المشين بالمقاطعة الاقتصادية، والسياسية ورأينا

العامة من المسلمين تحرق وتتلف، وتتظاهر وهم على حق في كل ما فعلوا، نقول هذا الكلام مع التنبيه إلى أننا نحن هنا لا نحاكم هذه الجماعات على مواقفها–وإن كنا نؤيدها فيما فعلته– ولا نفاضل بينها، فلسنا مؤهلين لذلك، ولكننا نصور تصرفاتها وسلوكاتها كما هي، فوجدنا من خلال ذلك ليونة عند أهل التصوف في التعامل مع الآخر وشدة من الجماعات الأخرى، ولعل ليونة الموقف الصوفي في التعامل مع الآخر في مثل هذه القضايا تعود إلى كون أن الصوفي يلجأ إلى الفهم الباطني للأحداث، أو للأشياء كما يلجأ إلى التفسير الباطني للآي الكريم فكل الوقائع الظاهرة تؤول عنده، ومن ثم يمكن لنا القول إن علاقة الصوفية بالآخر وتعاملهم معه تكاد تكون هي نفسها تعامل الحكومات التي ينتمون إليها، فهم مسالمون لينون، لا يقومون بأي فعل قد يسبب حرجا لحكوماتهم، فهم يفوضون حكومات شعوبهم للتعامل مع الآخر في مثل هذه القضايا الحساسة بين العالم الإسلامي، والعالم الغربي، ولعل ليونتهم هذه جعلت الحكومات الغربية تعمل على اختراقهم وقد وصفتهم وسائل الإعلام الغربية في أدبياتها بأصحاب الإسلام المهادن أو الإسلام المعتدل على غرار الدول العربية المعتدلة في نظر الغرب ونحن إذا جئنا نحاول أن نقيم تعاملهم مع الآخر فإننا نقول عنه انه لا يخلو من فوائد ومصالح إذ الاعتدال والليونة والعقلانية ومبدأ الرحمة كثيرا ما تؤدي إلى نتائج مفيدة خاصة في ظل تدهور حالتنا أمام الغرب القوي غير إننا نقول بجانب ذلك إن الليونة إذا صارت انبطاحا فإن أضرارها تكون وخيمة، ومن ثم نقول للسادة الصوفية عندنا يجب الاعتناء بقضايا المسلمين، وعدم الانقطاع للتعبد والتنسك بدعوى أن هذه القضايا تترك لأهل السياسة، فمن لم يهتم بأمور المسلمين ليس منهم كما ننبه إلى ضرورة المزاوجة بين الليونة والشدة حسب الموقف والمقامات، فالحكومات اليوم تستمد قوتها من الجماعات المشكلة للمجتمع المدني، ومن ثم يمكن للصوفية عندنا إذا ما أبدوا مواقف معينة في قضايا معينة أن تكون مواقفهم دافعة للحكومات ..وما يستخلص في آخر هذه المداخلة هي أن تعامل الصوفية مع الآخر الذي يختلف عنا دينا وحضارة مبني على أساس متين هو الر حمة والمحبة للإنسانية وهو مبدأ مستنبط من الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر وهو تعامل نراه مؤسسا على قوله تعالى(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقتكم إن الله عليم خبير)(105) وقوله تعالى أيضا(فقولا له قولا لينا)(106)وهما قاعتان أساسيتان في الفكر الصوفي عموما وسلوكات المتصوفة.

وخلاصة ما يقال في هذه المداخلة هي أن التعامل الصوفي مع الآخر وجدته المداخلة يتصف بالتسامح والليونة والاعتدال والتعقل والاتزان، ولعل هذا التسامح الصوفي في التعامل مع الآخر نابع– فيما نزعم– من المبادئ التي يتأسس عليها المذهب الصوفي نفسه وهي مبادئ ثلاثة نوجزها فيما يلي:

1–النزعة الروحية للمذهب الصوفي: من المعروف أن التصوف هو نزوع إلى الروحانية والإغراق فيها، والابتعاد عن المادية وشهوتها، وهو أمر كاف ليجعل من أهل التصوف أناسا يتسمون في تعاملاتهم بالتسامح مع الآخر، لأن غرائزهم متحكم فيها، أو كبحوا جماحها، فهم في تعاملاتهم غير مدفوعين بعامل

الطمع والجشع، والتهافت على حطام الدنيا، كما هو حاصل عند الآخرين،ومن كان هذا حاله قلت عنده روح المنافسة على الدنيا، وكثر عنده التسامح بل صار طبعا له.

2-الزهد: كنت قد بينت سابقا أن التصوف كانت بدايته زهدا، والزهد هو الإعراض عن حطام الدنيا والاكتفاء بالقليل منها مما يقيم الاود ويعين على العبادة وما زاد عن ذلك فهو ترف، وهذا في نظرنا أمر كاف لان يجعل روح التطاحن والتهافت على الدنيا تنعدم عند الصوفية ومن لم تكن الدنيا مبلغ علمه ومنتهى همه، كان تعامله كله لطف وتسامح سواء مع إخوانه أم مع الآخر.

3-الحب:المبدأ الثالث: الحب وهو مبدأ مهم في المذهب الصوفي، ولعله المبدأ الأساس في نشأته، الحب لله أولا، وللإنسانية ثانيا، والحب كما هو معلوم ضد الكره والحقد والبغض ومن انتزع من قلبه الكره والبغض والحقد كانت تعاملاته كلها لطف، ورقة، وكلها تسامح وهو ما نجده عند المتصوفة، فهم يفيضون حبا لله وللاسانية جمعاء، لهذه الأسباب أو المبادئ الثلاثة توجهت جهود الصوفية إلى مجاهدة النفس التي يرون جهادها هو الجهاد الأكبر، بغية ترويضها على العيش على المبادئ السابقة وهي: الروحانية، الزهد، والحب.

الهوامش:

1-عباس محمود العقاد التفكير فريضة إسلامية مكتبة رحاب الجزائر (د ت) ص112

2-ابن خلدون المقدمة دار القلم بيروت ط 11 سنة1992م ص467

3-الزمخشري جار الله محمود أساس البلاغة تحقيق عبد الرحيم محمود دار المعرفة بيروت (د ت) ص262.

4-المرجع نفسه ص نفسها.

5-العقاد المرجع السابق ص 112.

6-المرجع نفسه ص 113.

7-المرجع نفسه ص نفسها.

8-الزمخشري الأساس ص 262.

9-العقاد المرجع السابق ص 113.

10-المرجع نفسه.

11-المرجع نفسه .

12-المرجع نفسه .

13-المرجع نفسه .

14-المرجع نفسه .

15-المرجع نفسه ص114.

16-المرجع نفسه ص114 115.

17-المرجع نفسه ص نفسها.

18-ألبير نصري نادر التصوف الإسلامي المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة 1960م ص16.

19-إبراهيم بسيوني نشأة التصوف الإسلامي دار المعارف مصر سنة 1969م ص17.

20المرجع نفسه ص17.

21-المرجع نفه ص 17.

22-المرجع نفسه ص18.

23-المرجع نفسه 19.

24-المرجع نفه ص19.

25-المرجع نفسه ص نفسها.

26-المرجع نفسه ص نفسها.

27-المرجع نفسه ص نفسها.

28-المرجع نفسه ص نفسها.

29-المرجع نفسه ص21.

30-المرجع نفسه ص نفسها.

31-المرجع نفسه ص نفسها.

32-المرجع نفسه ص نفسها.

33-المرجع نفسه ص نفيها.

34-المرجع نفه ص نفسها.

35-المرجع نفسه ص 22.

36-المرجع نفسه ص نفسها.

37-المرجع نفسه ص نفسها.

38-المرجع نفسه ص نفسها.

39-المرجع نفسه ص نفسها.

40-المرجع نفسه ص نفسها.

41-المرجع نفسه ص 24.

42المرجع نفسه ص نفسها.

43-المرجع نفسه ص نفسها.

44-المرجع نفسه ص نفسها.

45-المرجع نفسه ص نفسها.

46-المرجع نفسه ص 23.

47-المرجع نفسه ص 58.

48-المرجع نفسه ص نفسها.

49-المرجع نفسه ص 279.

50-المرجع نفسه ص279.

51-سورة الداريات آية 50.

52-سورة النور آية 35.

53-سورة البقرة اية115.

54-سورة ق آية 16.

55-سورة الإسراء اية44.

56-سورة الأعراف آية 54.

57-سورة البقرة آية 255.

58-سورة الكهف آية 65.

59-العقاد التفكير فريضة إسلامية ص 123.

60-المرجع نفسه ص نفسها.

61-المرجع نفسه ص نفسها.

62-المرجع نفسه ص نفسها.

63-المرجع نفسه ص نفسها.

64-المرجع نفسه ص 124.
65-المرجع نفسه ص 132.
66-سورة القصص آية 77.
67-الحديث في كتب الصحاح .
68-عباس محمود العقاد الفلسفة القرآنية مكتبة رحاب الجزائر (د ت) ص 79.
69-سورة الإسراء آية 34.
70-سورة البقرة آية 177.
71-سورة الأنفال آية 55 56.
72-سورة التوبة آية 4.
73-سورة الممتحنة اية8 و9.
74-عباس محمود العقاد الفلسفة القرآنية ص 81.
75-سورة الروم الآيات من 1 إلى 4.
76-عباس محمود العقاد الفلسفة القرآنية ص 82.
77-الشيخ فيصل العوامي، المنطق القرآني في التعامل مع الآخر مجلة البصائر، مجلة إسلامية فكرية تصدر عن مركز الدراسات والبحوث الإسلامية في حوزة الإمام القائم السعودية العدد 34 سنة1425هـ 2004م .
78-سورة البقرة آية 190 .
79-سورة الحج آية 39.
80-ينظر القول في مقال المنطق القرآني في التعامل مع الآخر للشيخ فيصل العوامي السابق.
81-سورة المائدة آية 5.
82-سورة آل عمران آية 130.
83-سورة التوبة آية 34.
84-سورة الحشر آية 7.
85-الحديث في كتب الصحاح.
86-سورة الممتحنة آية 8.
87-عباس محمود العقاد التفكير فريضة إسلامية ص 140.
88-سورة الحجرات آية 13.
89-نمر النمر الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر مجلة البصائر العدد 34 سنة 1425هـ 2004م.
90-سورة الأنبياء آية 107.
91- نمر النمر المقال السابق.
92-سورة يوسف آية 108.
93-سورة البقرة آية 111.
94-سورة آل عمران آية 64.

95-سورة العنكبوت آية 46 .

96-سورة الأنعام آية 108.

97-سورة القصص آية 55.

98-سورة البقرة آية 256.

99-سورة البقرة آية 208.

100-سورة الأنفال آية 61.

101-سورة آل عمران آية 75.

102-سورة الممتحنة آية 8 و9.

103-عباس محمود العقاد الفلسفة القرآنية ص 82.

104-سورة طه آية 44.

105-سورة الحجرات آية 13.

106-سورة طه آية 44.